ـ ٢ ـ ملحمة نجيب محفوظ الروائية

بقلم أنور المعداوي

ـ ٣ ـ

في آخر صفحة من « قصر الشوق » ، يرسم لنا نجيب محفوظ خط اتجاه نفسي جديد لشخصية كمال ، وهو يتلقى الصدمة الثانية بموت زعيمه وزعيم الشعب : سعد زغلول .. كان خط الاتجاه النفسي الاول ، حين ركز كل اهتماماته العاطفية في حب فتاة من طبقة غير طبقته ، ثم خرج من هذا الصراع الطبقي وهو مهزوم .. لقد فقد في الصدمة الاولى حبه العاطفي ، وفقد في الصدمة الثانية حبه القومي ، وكلاهما كان نقطة ارتكاز موجهة ، لابرز انطلاقات السلوك الفكري والموقفي بالنسبة الى شخصية كمال في « السكرية » ، وهي الجزء الاخير من هذه الرواية الطويلة . « مات سعد .. المنفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها .. كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته » ؟! وماتت عايدة .. بمعنى انها خرجت من حياته . ان الموت حادث نسبي، مضمونه الشعوري بالنسبة الينا ، هو ان يخرج من حياتنا انسان نحبه .. ولقد هز موتهما ـ موت حبه القومي وموت حبه العاطفي ـ جانبا كبيرا من قيم وجوده : الامل ، والتفاؤل ، والخطوة الزاحفة الى المستقبل فوق معبر من الطموح والثقة بالنفس !

صورة طبيعية لشخصية انسانية صميمة ، لونها نجيب محفوظ ، دون ان يلجأ الى افتعالية الرتوش .. انه يقدم الينا عنصر التبرير الموضوعي لتحول هذه الشخصية من موقف الى موقف . اقوى الاقوياء لا تخلو حياتهم من لحظات الضعف ، ولكن افتعالية الرتوش هي التي تظهر لنا الصورة الانسانية وقد خلت من الوان تلك اللحظات ، وكأن الانسان آلة تسيرها قوة منظورة الى طريق مرسوم .. نجيب محفوظ ـ كدارس سيكولوجي واجتماعي من خلال العمل الروائي ـ لا يتورط في فرض تلك الآلية على ابطاله . ومن هنا تبدو شخصياته وهي بعيدة عن قابلية التحول من موجات نفسية تندفع وتنحسر في نهر الحياة ، الى دمى خشبية تفرض عليها الاصابع المحركة ان تتخذ اوضاعا معينة !

في الفصل الرابع من « السكرية » نرى كمال وهو يندفع مع الجموع الشعبية الى سرادق الاحتفال بعيد الجهاد الوطني .. « كان هذا ثامن عيد يشهده ، وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التي خلفتها الاعوام السابقة ، الاعوام التي تلت موت سعد . وقال لنفسه وهو يستعيد ذكريات تلك المرارة : لقد عاصرت عهد محمد محمود الذي عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب . كما عشت سنين الارهاب والعهر السياسي التي فرضها اسماعيل صدقي على البلاد .. كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكاما له ، ولكنه كان يجد فوق رأسه دائما اولئك الجلادين البغضاء ، تحميهم هراوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم . وسرعان ما يقولون له بلغة او بأخرى: انت شعب قاصر ونحن الاوصياء .. والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل معركة وهو يلهث ، حتى اتخذ في النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية ، فخلا الميدان الا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية اخرى ، وقنع الشعب بموقف المتفرج وراح يشجع رجاله في همس ، دون ان يمد لهم يدا .. ان قلبه لا يستطيع ان يتجاهل حياة الشعب ، انه يخفق معه دائما ، رغم عقله التائه في ضباب الشك » !

من خلال هذا التسجيل النفسي والتاريخي ، يتخذ نجيب محفوظ من شخصية بطله كمال ، احدى اللافتات المضيئة التي تشير الى منعطفات الدروب الاتجاهية ، بالنسبة الى جيل بدأت خطواته وهي ثابتة ثم انتهت وهي متعثرة ، لان رصيده من اسلحة المقاومة لم يكن متكافئا مع رصيد اعدائه من اسلحة القمع والارهاب .. وفي ضوء هذه اللافتة ، نرى كمال وقد بدأ يتأزم ، نراه وقد بدأ ايمانه بالقيم يهتز .. هذا الشعب الذي استكان للطغاة في سلبية مثيرة ، اهو ذلك الشعب الذي كان يلتقي به في الجهاد الوطني ، فيذكره هديره العاصف بأن في « مكتبته ـ اي مكتبة كمال ـ اصدقاء قليلين ممتازين مثل دارون وبرجسون ورسل ، وفي هذا السرادق ألوفا من الاصدقاء يبدون بلا عقول ، ولكن يتمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية ، وليسوا في النهاية دون هؤلاء المفكرين خلقا للحوادث وصنعا للتاريخ » ؟! ان ايمان كمال بالشعب ، بدأ يعتريه الشك .. وزحف الشك بعد ذلك الى ايمانه بالعلم وبالفلسفة .. لقد اصبح من رأيه أن « الفلسفات قصور جميلة ، ولكنها لا تصلح للسكنى » ! اما العلم فقد غدا من خلال رؤيته العقلية : « دنيا مغلقة من حولنا لا نعرف الا بعض نتائجها القريبة . لقد اطلع على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال ، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة .. فلم يلبث ان حرك رأسه مرتابا » !

كان له ايمانه الديني ثم ايمانه بالحقيقة ، ولم يلبث الله ان خرج من عالم كمال ، ولم يلبث ان خرج بعده رسل وبرجسون واسبينوزا وداروين .. ويقول له صديقه عبدالعزيز الاسيوطي صاحب مجة « الفكر الحر » التي يشارك في تحريرها ببحوثه ودراساته : « انت اعزب في فكرك كما انت اعزب في حياتك » ! ويقول كمال لنفسه : « ترى اكانت عزوبته نتيجة لفكره ، ام كان فكره نتيجة لعزوبته ، ام ان الاثنين كانا نتيجة لشيء ثالث » ؟!

في هذا المنولوج الداخلي الموجز ، يقدم نجيب محفوظ خريطة المعالم النفسية لازمة بطله كمال . وعلى امتداد الخطوط في هذه الخريطة ، نستطيع ان نحدد تضاريس تلك الازمة التي صنعت شتى الاتجاهات الاخيرة لشخصيته .. ان مضمون الفكر الاعزب والحياة العزباء ، هو في جوهره مضمون الوحدة المقلقة ، وهذه الوحدة كما تساءل كمال بينه وبين نفسه — كانت نتيجة لشيء ثالث ، والشيء الثالث كان في ضوء الواقع شيئين : لقد هزم الشعب — بعد موت سعد — في صراعه القومي ضد الاقلية والاستعمار والقصر ، وهزم هو — اي كمال — في صراعه الطبقي ضد عايدة .. ومن هنا ، من هذين المنبعين الرئيسيين ، انبثق تيار الازمة العقلية والنفسية جارفا معه ايمان كمال بأكثر مما اعتنقه من قيم . وتدفقت بعد ذلك في حياته تيارات اخرى من منابع جديدة ، عمقت مجرى الازمة وجسمت معالم المشكلة .. لقد سيطر الانحلال الخلقي على المجتمع ، وأصبح المنحلون اخلاقيا — من امثال رضوان ابن اخيه ياسين — هم اصحاب الحظوة والنفوذ لدى المسؤولين من رجال الحكم ، اما هو — الانسان الجاد الذي كان مرتبطا في حياته بقيم ومبادىء — فقد بقي مدرسا مغمورا يلقن مبادىء اللغة الانجليزية لتلاميذه الصغار ، واستمر موظفا صغيرا لم يتخط بعد عشرة أعوام من العمل المرهق حدود الدرجة السادسة . وحين يتقرر نقله الى اقاصي الصعيد لا يجد من يتوسط له ويبقيه في القاهرة ، غير ابن اخيه الناعم المنحل الذي لا يعرف مبادىء الشرف .. وماذا كانت النتيجة التي خرج بها من ايمانه بالثقافة ؟ لقد ادرك اخيرا ان الثقافة لا كرامة لها في بلده ! ان اخاه الجاهل ياسين — بفضل المكانة المرموقة لنجله المنحرف — قد سبقه في ميدان المكاسب المادية من وظائف الحكومة .. وصديقه فؤاد — ابن جميل الحمزاوي الذي كان عاملا في محل ابيه السيد احمد عبدالجواد — اصبح يخاطب رب نعمته بلغة التعالي والكبرياء وقد وضع ساقا على ساق ، لانه اليوم وكيل للنيابة بعد ان تخرج في مدرسة الحقوق او مدرسة النفوذ ، ولم يتخرج كما فعل هو في مدرسة المعلمين او مدرسة الثقافة .. والدراسات الجادة العميقة التي كان ينشرها في مجلة « الفكر الحر » ، لم تجد من يقدرها في مجتمع تسوده في ميدان الفكر والخلق والسياسة كل اسباب التدهور !

ويقول له صديقه رياض قلدس الكاتب القصصي الذي كان يشاركه في تحرير تلك المجلة : « انك تعاني ازمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الاركان ، عبث وقبض الريح ، نضال اليم مع اسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، اني ارثي لك .. انك توحي الي بشخصية الرجل الشرقي الحائر بين الشرق والغرب ، الذي دار حول نفسه كثيرا حتى اصابه الدوار » ! ويقول كمال لنفسه وقد تفجر في داخله احد المنبعين الرئيسيين لازمته : « يتكلم عن الشرق والغرب .. ولكن من اين له ان يعرف عايدة ؟ قد تكون التعاسة متعددة الجوانب »!

هل انتهى كمال الشخصية المصرية الصميمة المعبرة عن واقع جيل مأزوم ، والتي انتزع لها نجيب محفوظ — من خلال لحظات ضعفها النبيل — كل ما في نفوسنا من ايجابية الثورة على مجتمع بشع ، تعود ان يحطم اروع ما يستقر في نفوس افراده من ايمان بالقيم ؟!

لقد انتهى كمال ليبدأ من نقطة النهاية .. ليبدأ في شخصية اخرى رسمها نجيب ، لتكون واجهة عرض جديدة للجيل المتطور الذي مهد لثورة ١٩٥٢ . انها شخصية احمد شوكت ، المكافح الشاب ، صاحب الافكار التقدمية ، المعبر عن انتفاضة الشعب الناطقة بعد صمت طويل .. انتهى

فهمي ليبعث في كمال ، وانتهى كمال ليبعث في ابن اخته احمد ، من خلال قطاع طولي ممتد عبر العمل الروائي على مدار الاجزاء الثلاثة . ومن وراء الزجاج الشفاف لواجهة العرض الجديدة ، نلمح مجموعة القيم العقائدية لشخصية احمد شوكت :

« ان الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية وطبيعية في آن .. كان الحزب الوطني حزبا تركيا دينيا رجعيا ، اما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب ، الى انه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة ان الوطن لا يقنع ولا ينبغي له ان يقنع بهذه المدرسة .. نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لان الاستقلال ليس بالغاية الاخيرة ، ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية ... اما الادب فهو وسيلة من وسائل التحرير الكبرى ، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية ، فمن الازهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت اجيالا على تجميد العقل والروح ... والعلم اساس الحياة الحديثة ، ينبغي ان ندرس العلوم وان نتشبع بالعقلية العلمية . الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا ، وعلى الادباء ان ينالوا حظهم منه . لم يعد العلم وقفا على العلماء ، اجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف ، ولكن على كل مثقف ان يضيء نفسه بنوره وان يعتنق مبادئه ومناهجه .. ادرس الاداب كما تشاء ، ولكن لا تنس العلم الحديث . ولا يجب ان تخلو مكتبتك ــ الى جانب شكسبير وشوبنهور ــ من كونت ودارون وفرويد وماركس وانجلز . لتكن لك حماسة اهل الدين ، ولكن ينبغي ان تذكر ان لكل عصر انبياءه .. وأن انبياء هذا العصر هم العلماء » !

هذه الافكار والمبادىء ، تلقاها البطل الثاني للسكرية عن استاذه عدلي كريم رئيس تحرير مجلة « الانسان الجديد » وسرعان ما آمن بها ، واستقرت جذورها في اعماقه ، واتخذ منها شعاره القومي والانساني في معركة المصير .. ولقد كان احمد شوكت معجبا بخاله كمال ، ككاتب يمثل الطبقة المثقفة في جيله . ولكنه يتلقى من زميلته سوسن حماد ــ الصحفية المستنيرة التي اصبحت فيما بعد شريكة حياته ــ يتلقى من نقدها الموضوعي لموقف كمال الثقافي ، ما يضيف الى وجوده الفكري مزيدا من اللحظات المضيئة .. ان كمال الكاتب ، من خلال المنظار النقدي لسوسن : « واحد من الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقيا .. انه يكتب كثيرا عن الحقائق القديمة : الروح .. المطلق .. نظرية المعرفة : هذا جميل ، ولكنه ــ فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكري ــ لا يفضي الى غاية ! ينبغي ان تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف ، وان يكون هدفها الاخير تطوير هذا العالم ، والصعود بالانسان في سلم الرقي والتحرر .. الانسانية في معركة متواصلة ، والكاتب الخليق بهذا الاسم حقا يجب ان يكون على رأس المجاهدين . اما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده .. عندما يكون الانسان متألما يركز اهتمامه في ازالة اسباب الالم ، مجتمعنا متألم جدا فيجب ان نزيل الالم قبل كل شيء .. ولنا بعد ذلك ان نلهو وأن نتفلسف » !

هذه اللحظات المضيئة التي تصنعها الكلمة الموجهة ، تبرز موقف الكاتب من مشكلات عصره .. انها تمثل دورا قياديا بالنسبة الى المحيط الفكري للمجموع القارىء . ونجيب محفوظ لا يقتصر على الواقعية الايحائية لابراز مثل هذا الموقف الالتزامي ، ولكنه يجسم عملية العرض بمجموعة من الاحداث المتشابكة ، التي يربط فيها بين السلوك الداخلي والسلوك الخارجي لشخصياته .. ومن هنا يمكننا ان نتابع خطوات احمد شوكت ــ النموذج الصاعد للجيل الذي مهد لثورتنا الاخيرة ــ وهو يشق طريقه الى هدف محدد ، تقوده اضواء باهرة من الايمان بقيم جديدة ، عمادها التطلع الى حياة افضل !

لقد انتهت هذه الخطوات بصاحبها الى المعتقل ، ومن وراء القضبان كانت افكار احمد شوكت ومبادئه تتسلل الى الخارج ، لتنضم الى امواج المد التطورية في نضالها الزاحف .. وعلى اصداء تلك الافكار والمباديء استيقظ ماضي الجيل المأزم ممثلا في كمال وبدأ يرتبط بالحاضر ويتفاعل بالمستقبل .. ويقول كمال لصديقه رياض قلدس بعد ان هزت ضميره قوى الدفع الجديدة : « ان من المستحسن دائما ان يتأمل الانسان ما يراود نفسه من احلام ، وعلى ذلك فالتصوف هروب ، كما ان الايمان السلبي بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ، ولا بد للعمل من ايمان ، والمسألة هي كيف نخلق لانفسنا ايمانا جديرا بالحياة .. دعني اخبرك بما قال لي احمد شوكت عندما زرته في سجن القسم قبل نقله الى المعتقل . لقد قال لي : ان الحياة عمل وزواج وواجب انساني عام ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته او زوجه ، اما الواجب الانساني العام فهو الثورة الابدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى .. اتدري ماذا قال ايضا ؟ قال اني أومن بالحياة وبالناس ، وارى نفسي ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت اعتقد انها الحق ، اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب .. كما ارى نفسي ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت انها باطل ، اذ النكوص عن ذلك خيانة .. وهذا هو معنى الثورة الابدية » !!

لقد بدأ كمال يفيق من الاغماءة النفسية الطويلة ، بدأ يستعيد ايمانه بنفسه ، وبالشعب ، وبالحياة .. لقد انتفض مع الانتفاضة الجديدة .. وحين التقى القطب السالب بالقطب الموجب ، اندلعت الشرارة المقدسة التي اضاءت للجموع الزاحفة معالم الطريق !

ــ ٤ ــ

المضمون الاجتماعي والاتجاهي ــ كما عرضناه في نقدنا

لهذه الملحمة الروائية ـ ينحصر حتى الان في نطاق القطاع الطولي لمجرى الاحداث والمواقف ، اما القطاعات العرضية فيستخدمها الكاتب ـ كما اشرنا الى ذلك في الفصل الاول من هذه الدراسة ـ كروافد فنية ، تعين المجرى الرئيسي على الانطلاق ، هذه القطاعات او هذه الروافد تمثل الاطراف المتقابلة على جوانب الحيز الامتدادي لخط التطور،كما رسمه الواقع التاريخي للمجتمع المصري ، وكما لونه الالتزام الموقفي لنجيب محفوظ .

ان الاطراف المتقابلة تواجهنا مرة من داخل الاطارالسلوكي للشخصية ، وتواجهنا مرة اخرى من داخل الاطار الاتجاهي للثقافة ، وتواجهنا مرة ثالثة من داخل الاطار المذهبي للعقيدة السياسية والدينية .. هناك تقابل من ناحية المفهوم الثقافي والسياسي بين كمال واحمد شوكت ،وتقابل من ناحية المفهوم القومي والديني بين كمال رياض قلدس، وتقابل من ناحية العقيدة المذهبية بين احمد شوكت واخيه عبد المنعم ، وتقابل من ناحية الوضع الاجتماعي بين امينة وسوسن حماد . فبينما نجد مفهوم الثقافة عند الجيل الذي يمثله كمال ، هو مفهوم القراءة والاطلاع لمجرد الترف العقلي والمتعة الذهنية ، نرى هذا المفهوم يتطور عند الجيل الذي يليه والذي يمثله احمد شوكت ، بحيث تتحول الكلمة المقروءة من عملية اضاءة بالنسبة الى الفرد ، الى عملية قيادة بالنسبة الى المجموع .. الى تحقيق مصير عادل بالنسبة الى قضية الانسان . وبينما نرى كمال يؤمن بالوفد كحزب يمثل الاغلبية الشعبية وامانيها في الاستقلال، ويقف بايمانه عند هذا الحد كنقطة نهائية لهدفه الاتجاهي، نرى احمد شوكت وهو يتخطى بتفكيره هذه النقطة ،وينظر الى الوفد على انه مرحلة انتقالية يجب ان تعقبها مراحل اخرى من البناء الهادف الى اسعاد الجماهير .. وكمال وعايدة ـ يقابلهما داخل الاطار السلوكي للشخصية ـ احمد شوكت وعلوية صبري . نفس الصراع الطبقي الذي ينتهي هنا كما انتهى هناك ، بهزيمة الطرف الممثل للطبقة الوسطى من الشعب ! ولكن حين يتأزم كمال وتترك الازمة رواسبها العميقة في نظرته الى الحياة والناس ، يتماسك احمد شوكت ويرتفع بطموحه فوق مستوى الموقف ، ويرتبط بفتاة من طبقته ويحول الهزيمة الى انتصار .. لقد بقي كمال مأزوما حائرا حتى بعد ان احب بدور اخت عايده ، ولم يستطع ان ينتصر على نفسه ليرتبط بهذه الفتاة التي ارغمها الزمن ، على ان تهبط من عليائها الى المستوى الطبقي الذي ينتمي اليه !

يقول له صديقه رياض : « أمن المعقول ان تحبها وأن يكون في وسعك ان تتزوجها .. ثم تمتنع عن زواجها »؟ فيجيبه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج ! فيقول له محتجا: « ان الحب هو الذي يسلمنا للزواج ، فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة » ! فيجيبه باصرار : « بل أحبها وأكره الزواج » ! فيقول له : « لعلك تخاف المسؤولية » . فيجيبه محتدا : « اني احمل من اعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه » !ويعقب رياض : « لعلك اناني اكثر مما اتصور » . فيقول ساخرا : « وهل يتزوج الفرد الا مدفوعا بأنانيته الظاهرة والخفية »؟! ويقول له : « لعلك مريض فاذهب الى طبيب نفساني لعله يحللك » ! فيجيب : « من الطريف ان مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن : « كيف تحلل نفسك » ! فيقول له :«اشهد لقد حيرتني » . فيكون جوابه : انا الحائر الى الابد » !

كان مصابا بانقسام الشخصية من ناحية ، وبدا له الحب من ناحية اخرى « دكتاتورا » وقد علمته الحياة السياسية في مصر ان يمقت الدكتاتور من صميم قلبه .. ففي بيت العالمة جليلة كان يهب « عطية » جسده ثم سرعان ما يسترده ، وكأن ما كان لم يكن ! اما هذه الفتاة المستكنة في حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعا الى الابد »!

.. اننا مرة اخرى امام لحظة تفجير لاحد المنبعين الرئيسيين لازمة كمال ، امام هزيمة الشعب في صراعه السياسي ضد الدكتاتورية ! لقد مرت بنا لحظة تفجير اخرى للمنبع الاخر ، حين أثار رياض في نقاشه مشكلة الشرقي الحائر بين الشرق والغرب ، فأثار بها في نفسه مرارة الذكرى المترسبة من مشكلته مع عايدة .. لقد كره الدكتاتور الطبقي في شخص عايدة ، كما كره الدكتاتور السياسي في شخص صدقي ومحمد محمود . وعلى طول المدى الانفعالي بهذه الديكتاتورية السياسية والطبقية،تعذب كل ما فيه حتى الحب !!

واذا ما انتقلنا الى القطاع العرضي الذي نرى من خلاله كمال كرمز للاكثرية المسلمة ، ورياض قلدس كرمز مقابل للاقلية المسيحية في المجتمع المصري ، رأينا نجيب محفوظ يطالعنا بوجهة نظر موقفية لمشكلة الوضع الديني والقومي لهذه الاقلية ، مع التزامية الصدق التاريخي في عرض جوانب المشكلة .. يقول رياض لصديقه كمال : « ان الاقباط جميعا وفديون ، ذلك ان الوفد حزب القومية الخالصة .. القومية التي تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم . اعداء الشعب يعلمون ذلك ، ولهذا كان الاقباط هدفا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي ، وسيعانون ذلك منذ اليوم » ! ويقول له كمال في دعابة : « ها انت تتحدث عن الاقباط ، انت الذي لا يؤمن الا بالعلم

ويعقب رياض في حماسة : « اني حر وقبطي معا ، اشعر في احايين كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت . ولكن مهلا ،

قريبا

زهرة وحمامة

في موسكو

بقلم ناظم ايراني

أليس من الجبن ان انسى قومي ؟ شيء واحد خليق بأن ينسيني هذا التنازع ، الا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما ارادها سعد زغلول » ! ويقول كمال وصدره يجيش بالعواطف : « لا تؤاخذني ، فقد عشت حتى اليوم دون ان اصطدم بمشكلة العنصرية .. فمنذ البدء لقنتني امي ان احب الجميع ، ثم شببت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم اعرف هذه المشكلة » ! ثم يسأله : « وكيف نستأصل مشكلة كهذه من الجذور » ؟ ويجيب رياض : « من حسن الحظ انها ذابت في مشكلة الشعب كله ، مشكلة الاقباط اليوم هي مشكلة الشعب .. اذا اضطهد اضطهدنا ، واذا تحرر تحررنا » !

ان التزامية الصدق التاريخي هنا ، تبدو لنا من خلال الواقع الاجتماعي الذي يصوره نجيب محفوظ بأمانة ... ذلك لان اضطهاد الاقباط في تلك الفترة بواسطة الدكتاتورية الحاكمة وأشياعها من ابناء الرجعية الشعبية ، كان بسبب الاتجاه السياسي ولم يكن بسبب العقيدة الدينية ، ولعل نجيب محفوظ يرمز الى الوحدة الشعورية كرباط قومي بين الاكثرية المسلمة والاقباط ، بتلك الصداقة الخالصة من التعصب بين كمال ورياض قلدس . وكل خلاف طائفي يمكن النظر اليه على ضوء الجانب الموقفي للكاتب ، وهو جانب الدعوة الى الفناء في القومية المصرية .. ولقد اتسع الافق المذهبي اليوم لهذه الدعوة ، حتى شمل المفهوم الانساني العام لمعنى « الفناء » بالنسبة الى القومية العربية!

وفي مجال الاسرة الصغيرة ـ اسرة شوكت ـ يدير نجيب محفوظ صراعا مذهبيا بين احمد شوكت وأخيه عبدالمنعم .. انه الصراع الذي شهده المجتمع المصري بين اتجاهين متناقضين ، لكل منهما نظرته العقائدية الخاصة الى تنظيم الحياة الاجتماعية على اسس معينة . ومن داخل هذا القطاع العرضي الجديد نتابع خط السير الفكري لاحمد التقدمي المتطور ، والخط الاخر المضاد الذي يتخذه عبدالمنعم كشعار اتجاهي للاخوان المسلمين .. يقول عبد المنعم في معرض النقاش بينه وبين احمد : « لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب ، ولكننا نحاول فهم الاسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم .. ماذا تعرف عن الاسلام حتى تهرف بما لا تعرف » ؟! ويرد احمد بهدوء : « اعرف انه دين ، وحسبي ذلك ، انا لا أومن بالاديان » ! ويتساءل عبدالمنعم مستنكرا : « ألديك برهان على بطلان الاديان » ؟! ويجب احمد بنفس الهدوء : «الديك انت برهان على حقيقتها » ؟! ويعقب عبدالمنعم محتدا:«عندي وعند كل مؤمن ، ولكن دعني اسألك اولا كيف تعيش » ؟ ويقول احمد باعتداد : « بايماني الخاص ، ايماني بالعلم وبالانسانية وبالغد ، وبما ألتزمه من واجبات ترمي في النهاية الى تمهيد الارض لبناء جديد » ! ويصيح عبدالمنعم في غضب : « لقد هدمت كل ما الانسان انسان به » !ويواصل احمد انطلاقه الجدلي : « بل قل ان بقاء عقيدة اكثر من الف سنة ليست آية على قوتها ، ولكن على حطة بعض بني الانسان .. ذلك ضد معنى الحياة المتجددة . ما يصلح لي وأنا طفل يجب ان أغيره وأنا رجل .. طالما كان الانسان عبد للطبيعة والانسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان بالمذاهب التقدمية . ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة » !!

هكذا يرافق نجيب محفوظ موكب التطور الحياتي للمجتمع المصري من مختلف زواياه ، وما تزال الروافد الجانبية في العمل الروائي تصب في المجرى الكبير ... فشخصية سوسن هي الامتداد التطوري لشخصية امينة. لقد حطمت المرأة المصرية قضبان السجن وخرجت الى الحياة .. من البيت الى الشارع ، ومن رق الزوجية الى حرية الارادة ، ومن جمود الانطواء الى حركة الانطلاق ،ومن سلبية الوضع الاجتماعي الى ايجابية المشاركة في توجيه المصير . ونظرة الرجل الى المرأة تتفاوت هي الاخرى على مدار الاجيال : ينظر اليها احمد عبدالجواد في صورة امينة، كمصنع آدمي لانتاج النسل ، وكجارية تناديه دائما بكلمة « يا سيدي » تجسيما للعبودية المعترفة بالاستبداد كحق مشروع ! وينظر اليها في صورة زنوبة ، وزبيدة وجليلة كنموذج ترفيهي في مجال العلاقة الجنسية .. وينظر اليها فهمي في صورة مريم جارته الجميلة ، التي تبلغ من فهم الحياة مرحلة تتساوى فيها مع اختيه خديجة وعائشة ، وتتفوق فيها نسبيا على امه .. وينظر اليها كمال في صورة عايدة ، كنموذج للمستوى المعيشي الرفيع والجمال الارستقراطي الباهر والثقافة الفرنسية المتميزة ، كرد

دار الآداب تقدم قريبا

قصائد عربية

مجموعة جديدة رائعة

للشاعر العربي المبدع

سليمان العيسى

كلمات لاترف السعادة

ما يولد في الظلمات يفاجئه النور ...
فيعريه
لا يحيا حب غوار في بعض الشك او التمويه
لا يقتات الانسان فم الجرح الصديان ، ويلتذ
لا توضح كف في نار ، لا تهتز
اشباح الماضي ـ بئس الرؤيا ـ حين تجهنمها الغيره
فاذا لاقى قلبان تقيلان الدنيا
ظنا ما مات يكفن في الكلمات الحلوه
في الالفاظ البيض المجلوه
في العهد المسبل فوق الامس ، ودون اليوم ، وحول
(الذكرى

وهما قالا للنسيان
يا نسيان ، اجمع ذكرانا واقذفها في البحر
يا نسيان ، اجعل ماضينا من اصداف ، مستقبلنا من تبر
فهما قلبان ، وان فرحا بالعمر شقيان
عشنا .. عشنا ..
في مضجعنا ، مما عشناه ، نخبي جزءا ، نكشف جزءا
لو افلت حلقانا ، لو قلنا مما خبأنا شيئا
لتفرقنا ، لتفرق قلبانا .. وصرخنا .. نأيا .. نأيا
لتبدت في عينينا رؤيا
أشباح الماضي حين تجهنمها الغيره

صلاح عبد الصبور

فعل لحرمان بيئته الشعبية من كل هذه القيم المغرية !...
وينظر اليها احمد شوكت في صورة سوسن ، الفتاة المكافحة المستنيرة التي تكسب قوتها بعرق الجبين ، ولا تستمد فتنتها الانثوية في نظره من جمال الوجه كما يفعل الاخرون، وانما تستمدها من جمال الفهم لمشكلة الحياة وقضية الانسان !

على ضوء الرؤية النقدية لواقعية نجيب محفوظ الايحائية نستطيع ان ننظر اليه وهو يتخذ موقفه الى جانب التطور بالنسبة الى الاطراف المتقابلة ، حتى لقد جعل كمال في نهاية « السكرية » يتفاعل تفاعلا ايجابيا مع خطوات النضال الجديد .. ونجيب في واقعيته لا يفرض الشخصية على الموقف وانما يفرض الموقف على الشخصية ، بمعنى انه يضع الشخصية في مستوى عقلي معين يتحتم معه ان ترتبط بسلوك موقفي مناسب ، وهذا ما نلاحظه على شخصياته في مختلف المواقف والمستويات .. ان فرض الشخصية على الموقف عند كتاب الواقعية الايديولوجية ، ناتج من كون الموقف جاهز الاعداد مقدما في ذهن الكاتب وأن الشخصية قد تكون غير جاهزة الوجود في الواقع الخارجي ، ومن هنا نشعر ان الكاتب الايديولوجي غالبا ما « يجوف » الشخصيات ليملأها بأفكاره الذاتية !

ومع ذلك فان هذه الملحمة الروائية ـ كعمل فني يقف موقف الندية من انضج الاعمال المماثلة في ادب الغرب ـ لا تخلو من بعض المآخذ .. فنجيب محفوظ مثلا ـ وعلى الاخص في « بين القصرين » ـ يسرف احيانا في رسم الابعاد النفسية لبعض الشخصيات من خلال عملية السرد .. وعيب هذه الطريقة انها تطبع خط السير الحدثي بطابع البطء والرتابة!

ان الحركة بطيئة في بعض فصول الجزء الاول من هذه الرواية ، ولو رسم نجيب تلك الابعاد النفسية من خلال اللقطات الحديثة والموقفية ، لرأينا تلك الحركة الجياشة التي شملت الوجود الداخلي والخارجي للشخصيات في « قصر الشوق » وبلغت الذروة في ابراز العنصر التجسيمي والتركيزي لمختلف اتجاهات النسيج الروائي في «السكرية» .

وهناك قطاعات عرضية قليلة ، تخرج عن نطاق البعد الموضوعي الرئيسي للمشكلة في خطوطها العامة .. وذلك حين يعمد نجيب الى التفصيلات الجزئية لما يدور احيانا من احداث ذاتية في الجو العائلي لآل شوكت ، او في جو المغامرات الجنسية لطبقة العوالم المغنيات من امثال زبيدة وجليلة وزنوبة ، او في جو العلاقات البيئية والشعورية بين احمد عبدالجواد وأصدقائه من طبقة التجار .. لا تخلو عملية الالتقاط من الاسراف في تجميع كل الزوايا من اجل اكتمالية الصورة ، وكنا نفضل لو لجأ نجيب الى « الاختيار » .. فاختيار الزاوية المعبرة قد تغنينا عن زوايا كثيرة ، واختيار اللقطة الموحية قد تغنينا عن مجموعة كاملة من اللقطات !

القاهرة

انور المعداوي